الفصل الثاني

التوحيـــد

هو أول ما يُدخل العبد في الإسلام وآخر ما يخرج به العبد من الدنيا ، فهو أعدل العدل ، وعكسه الظلم وهو الشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والتوحيد تنزيه لله تعالى عن الحدث في ذاته وصفاته وأفعاله ، وهو أول دعوة الرسل؛ إذ جاءت جميعها لتفرده وحده بالعبادة ، قال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

فالإقرار بالصانع خالق الكون فطريّ مغروز بالجِبِلّة ، إذ إنَّ لإثباته طرقاً شتّى ، والقرآن يقرّ بأن المشركين يقرون بربوبيّة الخالق ، وأنه الخالق الرازق المحيي المميت ، ولم ينكره إلا فرعون ، ولا أحد من أهل الأديان يقول بصانعين وإنما شفعاء.

كما أن من مهام الأنبياء والرسل الكرام: تبيان متطلبات الإيمان وواجبات الخلق تجاه ربّهم؛ لينالوا رضاه وثوابه ولينجوا من عذابه ويتجنبوا غضبه.

والتوحيد يتضمن إثبات صفات الله تعالى ، وتوحيد الألوهية الذي يشمل توحيد الربوبية ، فالذي يعبد الله وحده لا بدّ من أن يتبرأ من عبادة سواه ، وعليه فتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية دون العكس.

ـ تنزيه الله تعالى:

التوحيد يتضمن ثبوت صفات كماله تعالى ونعوت جلاله في عدم المماثلة له فيها ، وعبادته وحده ، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ

ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. والعدل يتضمن وضع الأشياء في موضعها وإنزالها منازلها، والحق الذي خلقت به السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣]. هو التوحيد وحقوقه من الأمر والنهي والثواب والعقاب والشرع والقدر والخلق.

وهو الحقيقة الثابتة التي اقتضت حكمته وعدله أن يخلق ما في السماوات والأرض على أسس، ويسخرها للإنسان؛ لينتفع بها في استخدامها وفي التعرف بها إلى الله فيعرج في مدارج الكمال ما دامت باقية وثابتة في ذهنه ونظره وتقديره واستعماله على تلك الحقائق الثابتة.

- والعزة تتضمن كمال قدرة الله تعالى وقوته وقهره، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

- والحكمة: تتضمن كمال علمه تعالى وخبرته فيما أمر ونهى وخلق وقدّر، قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

- واسمه العزيز يتضمن: الملك والقدرة والسلطان وإنه لا يُنال منه عزّ سلطانه، وقد أقسم إبليس بعزته؛ فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ..﴾ [ص: ٨٢] فشمل ذلك ملكه وقدرته والسلطان والقهر.

- واسمه الحكيم يتضمن: الحمد، إذ الحكيم إذا أمر أمراً فهذا الأمر يكون حسناً بنفسه، وإذا نهى يكون هذا المنهي عنه قبيحاً بنفسه، وإذا أخبر كان صادقاً، وإذا فعل كان صواباً، وإذا أراد كان أولى بالإرادة من غيره.

وهذه الأوصاف بالكمال لا تكون إلا لله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فهذه الشهادة فيها التوحيد المنافي للشرك، وفيها العدل المنافي للظلم، والعزة المنافية للعجز، والحكمة المنافية للجهل والطيش والعيب.

لذا فهي أعظم شهادة ، ولذا لا يقوم بها إلا من نهج على سنة المصطفى ، ولا يحظى بها أهل الانحراف والبدع.

ـ والشيطان: قام يزين للإنسان (بعضهم) ، فأبطل لهم حقيقة إنسانيتهم العاقلة المفكرة فلم يعودوا يعقلون عن أمر الله وآياته «الكونية والقرآنية..» ولا عن شرائعه المنزلة على الأنبياء ، فصاروا مقلِّدين «إمّعة» فغفلوا عن كل حق وجعلوا لله أنداداً ، وأبطلوا حقائق الشرع ، فزعموا أنها نزلت لغير مقاصدها.

ـ والفلاسفة: ينكرون له هذه الصفات والأسماء الحسنى ، وكذلك من سار على أثرهم من أهل علم الكلام «الاعتزال» ، وكذلك أهل الحلول الذين يدَّعون حلوله تعالى في كل شيء ، ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ـ فإثبات الصفات لله تعالى هو الأصل والأشمل ، أما النفي فجاء لمسائل محددة ، كما جاء في الرد على جماعات اليهود كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ..﴾ [التوبة: ٣٠] ، ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ..﴾ [المائدة: ٦٤] ، وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران: ١٨١]. تعالى الله عما يقول الظالمون.

ـ وآيات الصفات من المحكم وليست من المتشابه ، لأن المحكم من القرآن: ما عُرِف معناه وتفسيره وفُهِم تأويله ، والمتشابه: ما لم يكن لأحد أن يعلمه ومما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه؛ كحروف أوائل السور ، والساعة ، وخروج الدجال ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى عليه السلام.

ـ أما آيات الصفات فقد تعرض لها السلف ووقفوا عند المعنى اللغوي ولم يتعدوه إلى الخوض في الكنه بالنفي أو التعطيل ولا التشبيه أو التجسيم ، فهي من المحكم الذي فهم الصحابة معناه.

فلم يشبِّهوا غضب الله تعالى بغضب الخلق ، ولم يؤولوه ولم يعطلوه ،

فقد تركوا التكلّف والتعمّق والتنطّع ووقفوا عند الكتاب والسنة بعيداً عن الوصف بالكيفية.

لذا لم يُؤثَر عنهم تنازع في أيٍّ من مسائل الصفات، أو أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، بل اتفقت كلمتهم على إمرارها كما هي وإقرارها مع فهم معانيها وكذلك التابعون، فقد اشتركوا في أصل المعنى العام والخاص لا فهم الكنه والكيفية.

فلما أشكل على عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ..﴾ [البقرة: ١٨٧] بيّنه له رسول الله ﷺ.

ولم يشكل على أحد منهم قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فنفوا الكيفيّة ولم ينفوا حقيقة الصفة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ليس كمثله شيء رداً على الذين جعلوا صفات الخالق كصفات المخلوق (رداً على المعطلة النُّفَاة ورداً على المشبهة الممثلة) فالله تعالى سمى نفسه بأسماء وسمى عباده بأسماء مثلها باللفظ ولكن لا مجال للتشابه.

وكذلك اتخذ لنفسه صفات وأسماء وسمَّى بعضها لخلقه وليس المسميان سواء فلا المسمي يتصل بالمسمى، فليس العلم عند الله كالعلم في خلقه، وليست القدرة عند الله كالقدرة في خلقه، ولا القوة كالقوة، فمن جعل صفات المخلوق كصفات الخالق فهو مجسِّم؛ لأن أحدهما يجب قدمه وكونه موجوداً بنفسه والآخر لا يجب عليه القدم وهو محدث ليس موجوداً بنفسه، وأحدهما خالق والآخر مخلوق، وأحدهما غني عن سواه والآخر مفتقر لغيره، فهما متفقان بشيء (باللفظ) ومختلفان من أوجه، فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطلاً، ومن جعلهما متماثلين كان مشبِّهاً، والاشتراك في الأذهان مشترك، وأصل الخطأ أن يتوهم أن هذه الأسماء أو الصفات العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتاً في هذا المعيَّن وهذا المعيَّن.

وعليه فالمشبِّهة أخذوا المعنى وزادوا فيه على الحق، فضَلُّوا،

والمعطلة نفوا المماثلة بوجه من الوجوه وزادوا على الحق فضَلُّوا أيضاً.

فإدراك الإنسان للمعاني الحسية أولاً بالمشاهدة ثم يعقل معانيها الكلية، ثم تعريف الألفاظ الدالة على المعاني الحسية والعقلية، فإذا أخبرنا عن الأمور الغائبة فلا بد من تعريفنا بالمعاني المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والاشتباه الذي بينهما.

ـ ولا يعجزه شيء:

نفي لإثبات كمال الضد، فالعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً.

فثبات قدرته وعدله وجلاله وعظمته وكبريائه وصفات كماله مفصلاً، ونفي الأضداد مجملاً عكس ما يتفوّه به أهل علم الكلام الذين يقولون: ليس بجسم ولا لحم.. ولا شخص.. ولا جوهر.. ولا عَرَض ولا بذي لون.. هذا النفي إساءة أدب مع الله تعالى، وعليه فغاية عقائدهم السلوب: ليس بكذا..!

ـ قبس من كماله تعالى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

فإفراده تعالى يشمل إفراده في عموم قضائه وقدره لجميع مخلوقاته، ويشمل إفراده بالتأليه والحب والخوف والرجاء، والتعظيم والإنابة والاستعانة وابتغاء الوسيلة، وفي الحديث: «ياغلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك ما نفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإذا اجتمعت على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف».

فالإله الذي تألَهُ القلوب محبته واشتياقه والإنابة إليه لا إله إلا هو،

المألوه بغاية الحب والتعظيم والذي له الأسماء الحسنى.

والقرآن والرسل دعوا لألوهية الله وعبادته وتوحيده، والتي تشمل:

أ ـ توحيد إثبات صفاته ومعرفة الصفات وأفعاله إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ب ـ وتوحيد في القصد والطلب: قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٢]، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ..﴾ [آل عمران: ٦٤].

فالقرآن:

ـ إما خبر عن الله تعالى، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ..﴾ [الحشر: ٢٤]، وقال ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ..﴾ [الحشر: ٢٣].

ـ وإما دعوة لعبادته، قال تعالى: ﴿فَإِيَّىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] وقال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ـ وإما أوامر أو نواهي والتزام بطاعته، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٨٨]، ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ..﴾ [الأنعام: ١٥١].

ـ وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده: قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ..﴾ [النور: ٥٥].

ـ وإما خبر عن أهل الشرك وما سيحلّ بهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩].

ـ وإما قصص الأنبياء عن أقوامهم وما كان من انحراف أقوامهم بالعقيدة. ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥].

وقد ندب الله تعالى إلى تدبّر القرآن ، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢] ، فإن كل من تدبّره أوجب له علماً ضرورياً ويقيناً جازماً أنه حقّ وصدق ، وأن الذي جاء به من عند الله هو أصدق الخلق ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ . . ﴾ [الزمر: ٣٣] ، وقال تعالى: ﴿ . . ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] ، فيستحيل أن تطمئن القلوب إلى الكذب والباطل أو أن تسكن له.

كما أن آيات الله الكونية (العيانية) تدل بعد النظر والاستدلال على ما تدل عليه آيات الله القولية والسمعية (قرآن) ، فهي دلائله وبراهينه التي يعرفه بها عباده ويعرفون منها أسماءه وصفاته وتوحيده.

والعقل يجمع بين ما تدل عليه آياته القرآنية (السمعية أو القولية) وآياته العيانية (الكونية) فيجزم بصحة ما جاء به الرسل ، ومن الأدلة العقلية ما أبقاه الله من آثار عقوبات أهل الشرك وما حل بديارهم ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨] ، وما أبقاه الله من آثار نصرة التوحيد وإعزازهم وكيف جعل العاقبة لهم ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ . . ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

ـ الصراط المستقيم:

هو العدل الذي عليه الله سبحانه وتعالى ، وفيه انتقامه من أهل الشرك والإجرام ، ونصرته لأوليائه ورسله على أعدائه وأعدائهم ، وأنه تعالى القائم على كل شيء حفظاً ورعاية وتدبيراً وإحصاءً ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦] ، وقال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

والله تعالى شهد لرسوله ﷺ أصدق الشهادة وأعدلها وأظهرها ، وصدقه بسائر أنواع التصديق: بقوله وفعله وإقراره وبما فطر عليه عباده من الإقرار بكماله وتنزيهه عن القبائح ، وذلك بما أودعه في قلوب عباده من التصديق

الجازم واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه.

فالله تعالى فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له ، وبغض الباطل والكذب ، والنفور والريبة منهما وعدم السكون لهما ، ولو لم تلوث الفطرة لما سكنت إلا للحق ، قال عليه السلام: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا». وكما قال رسول الله ﷺ لأحد الصحابة عندما أسلم: «أسلمت على ما أسلفت عليه».

ـ والتوحيد يتفاوت بين الناس علماً ومعرفة وشعوراً ، فأكمل الناس توحيداً الرسل والأنبياء ، وأولو العزم منهم أكمل ، وأكمل منهم توحيد الخليلين إبراهيم ومحمد عليهما السلام. وبالتوحيد أُمِرَ الأولون والآخرون.

ثم توحيد المقربين (من كان توحيدهم على جهة اليقين) ، ثم توحيد الصدِّيقين من رأوا الله وحده ثم رأوا الأشياء إذ لا يرى أحدهم الشيء إلا من حيث أوجده الله (بالقدر وميّزه بالإرادة على سابق العلم القديم ثم أدام القهر عليه بالوجود).

وعليه: فالتوحيد مسلك بين مسلكين باطلين (وهما الشرك والإلباس) وكلاهما شرك ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ . .﴾ [الأنعام: ٨٢] ، ويدخل فيه:

١ ـ من نطق بشهادة التوحيد مع شهادة الرسول ﷺ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وهو لا يعتقد معنى ما نطق به: فلا قبول له.

٢ ـ من نطق بشهادة التوحيد مع شهادة الرسول ﷺ أو مع إضافة أشياء لا يحصل الإيمان معه (كالمسيح أو علي أو عزير. .).

٣ ـ من نطق بشهادة التوحيد وشهادة الرسول ﷺ مع اعتقاده الكفر (المنافقين).

وهؤلاء الثلاثة لا يخرجون من زمرة الكافرين ولا عصمة لهم.

٤ ـ من نطق بشهادة التوحيد وشهادة الرسول ﷺ دون معرفة مضمون

كلامهم ، ولا ساكنوا أهل التوحيد ، فأظهروا الرضا مع عدم الفهم لما قالوا ، وأتتهم منيَّتهم على ذلك ، فأمرهم إلى الله: إن شاء عذب وإن شاء غفر.

٥ ـ من نطق بالشهادتين على جهة اليقين دون جدال ، وهذا هو المطلوب (توحيد المقربين).

ـ والتوحيد أن تغفر جهل القوم ، وتمنع جهلك عنهم ، وتبذل لهم حاجتهم وتكون آيساً منهم لحاجتك.

ـ والعلم منه:

أ ـ فريضة (ما لا بد للإنسان من معرفته).

ب ـ فضيلة(ما زاد عن الحاجة).

ـ وأعلم الناس من عمل بما علم ، وأجهل الناس من ترك العمل بما علم.

ـ وأخشعهم لله أفضلهم ، وينْتَفي العلم عن الذي لا يخاف الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

ـ فعلوم الإيمان علوم القلب وعلوم الإسلام علوم الأقوال والأعمال ، وكل علم لا يوافق السنة فهو رذيلة.

* * *

تنزيه الله تعالى عن الحدث

في ذاته وصفاته وأفعاله ، وهو أول دعوة الرسل ومفتاحها ، قال كل منهم : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩] ، فالله فطر عباده جميعاً على معرفة الخير وحبه ومعرفة الفساد وبغضه ، قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ . . ﴾ [الروم: ٣٠] ، وزين الله لعباده الدنيا ليعملوا فيها بطلب الآخرة ، قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ . . ﴾ [الكهف: ١٧] ، وزين الشيطان الشهوات للإنسان ليبعده عن الحق ، فتزيين الله الكون لعباده ابتلاء ، وتزيين الشيطان المعاصي للإنسان إغواء.

فإذا تحرك المرء بشهواته واعتدى على حقوق الآخرين طمست الفطرة وصار يرى السيّئ حسناً ، فلم يعد يهمه الحساب والعذاب ، بل همه اقتناص اللذة وإرواء شهواته فحجبت عنه الحقيقة وصارت أعماله السيئة تعجبه ، فلم يعد يعرف الخير الذي كان يحبه بفطرته ولم يعد يعرف الفساد الذي كان يكرهه بفطرته ، وهذا عقاب ربنا بأن أصبح العبد يرى السيئ حسناً وذلك عند إعراضه عن توحيد ربه وعبادته؛ لأن المعاصي تحجب النور الإلهي فيعيش في الظلام ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فانطماس الفطرة عدل من الله وعقوبة على الانحراف والسبب الداخل فيه العبد حبه وبغضه وإعراضه ، وتزيين الشيطان إغواء وظلم خارج عن العبد ، وكل ذلك واقع بمشيئة الله وقدرته ، قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

والعكس صحيح ، فالذي تفتحت بصيرته على الحق ورُزِقَ اتباعه فتولى

الله أمره وأخرجه من ظلمات الجهل إلى النور ، كما قال مؤمن آل فرعون ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ . . ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٢].

ـ **لا حول ولا قوة إلا بالله**: فلا قوة لأحد على إقامة الطاعة لله والثبات عليها إلا بتوفيق الله ، ومشيئته غلبت المشيئات كلها ، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] ، وإرادته غلبت الإرادات كلها ، وغلب قضاؤه الحيل كلها ، فما لا يطاق ـ للعجز عنه ـ لا يكلف به الإنسان ، ولكن مالا يطاق للاشتغال بضده فيجوز تكليفه به.

ـ فليس ما كان من الإنسان ظلماً أو قبحاً هو من الله كذلك؛ فذلك تمثيل الله تعالى بخلقه ، فالله نزّه نفسه عن الظلم ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ، كماقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فالإضلال والمكر والكيد والاستهزاء من الله لا تعني ما يكون عند الإنسان ، فهذه عند الله لخير الإنسان وعند الإنسان أنانية ومصلحة وتسلط.

ـ والإنسان لا يخاف الممتنع على الله ولكن يخاف الممكن ، وبما أن الرحمة ممكنة والظلم ممتنع فقد أمنه على نفسه من الظلم ، قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

ـ والقرآن مليء بتنزيه الخالق عن فعل السوء والعبث أو أن يتساوى عنده من يعمل الخير ومن يعمل السوء ، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] ، وقال ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٨] ، كما وقال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

ـ وفي الحديث: «لو أنه عذب أهل سماواته وأهل أراضيه لعذبهم وهو غير ظالم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم». ولو وضع

الله سبحانه وتعالى عدله في أهل سماواته وأهل أراضيه؛ لعذبهم بعدله ولم يكن ظالماً لهم.

ـ وقبول التوبة محض فضل منه تعالى وإحسان ، فلا يبلغ أحد عمله أن ينجيه من النار ولذا قال الرسول الكريم ﷺ: «لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟. قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته».

إذاً فلا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين وينقاد لهما ولم يعارضهما برأي أو معقول أو قياس (من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم) ، والرسول ﷺ معصوم في خبره عن الله تعالى ، فلا يجوز عليه الخطأ ، ويحذر التكلم بأصول الدين وغيرها من غير علم.

وأهل المصالح والأهواء بأقيستهم الفاسدة يحرّمون ما أحلّ الله أو أباحه أو يحلّون ما حرّم الله ، فيدّعون أن السياسة والشرع إذا تعارضتا قدمت السياسة ، وإذا تعارض العقل والنقل قُدِّم العقل ، وإذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قُدِّم الذوق والكشف.

وقد أنذر الرسول الكريم ﷺ المتنطعين بالهلاك ، إذ قال عليه السلام: «هلك المتنطّعون» ، وهم أنصار الرأي والكلام ، فلو كان هذا مفيداً ما سكت عنه الصحابة ، ولأنه سبب لإثارة الشبهة وتحريف العقائد وإبعادها عن الجزم ، كما أن ذلك سبب في تأكيد عقائد البدعة ، كما أن اشتداد العبد في الحرص والإصرار يوصل إلى الكذب ومخالفة السنة.

ـ علم الغيب:

ـ نؤمن بأن الله عالم الغيب والشهادة ، فالغيب بالنسبة للإنسان (لنا) ما حجبه عنا الزمان والمكان وما قدره الله على الإنسان من أقدار يظهرها مربوطة بأحداث مرتبطة بأعمالنا.

إن كل حدث من الأزل إلى الأبد هو شهادة عند الله فليس يحجبه تعالى عنه زمان ولا مكان فهو خالق الزمان والمكان ، وإن كل ما خلق الله وما يخلق وما سيخلق هو شهادة عند الله تعالى؛ لأنه بقدره وعلمه.

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ . .﴾ [سبأ: ٣] ، كل ذلك مسجل ﴿. . فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

ـ من لم يتوقّ التشبيه والنفي زلّ ولم يصب التنزيه:

فالله تعالى لا تحيط به رؤية ولا يحاط بشيء من علمه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

وإن نفي إدراك الرائي هو نفي إدراك الإحاطة.

وأمراض القلب تقسم إلى:

١ ـ مرض شبهة ، كقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، فشبهة نفي الصفات من ردّ وتكذيب لما جاء به الكتاب والرسول ﷺ وهي كفر ، وكذلك فشبهة التشبيه هي غلوّ في مجاوزة الحدود ، وهي نوعان:

أ ـ تشبيه الخالق بالمخلوق.

ب ـ تشبيه المخلوق بالخالق: كعبادة الشيوخ والآباء والملائكة وعيسى عليه السلام ، وعزير ، وعبادة العجل ، ولهؤلاء أرسلت الرسل.

٢ ـ مرض شهوة ، كقوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] ، وهذا المرض يرجى له الشفاء بعد قضاء الشهوة.

ـ فالله تعالى قائمٌ قبل خلقه ، فلم يزد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفاته وكما هو بصفاته أزليّاً كذلك لا يزال عليها أبديّاً ، فلا يجوز الاعتقاد بأن الله تعالى وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها؛ لأن صفاته تعالى صفات كمال وفقدها نقص ، ولا يجوز القول: إن الكمال حصل بعد أن كان متصفاً بنقصه أو بضده ، وإن كانت الأحوال تحدث في حين دون آخر ، وفي الحديث: «إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضبه من قبل ولن يغضب بعده مثله».

ـ كما لا يطلق على صفات الله تعالى وكلامه: أنه غيره ولا أنه ليس

غيره؛ لأن إطلاق الإثبات يشعر أن ذلك مباين له وإطلاق النفي قد يشعر أنه هو هو ، فإن أريد اللفظ غير المعنى فهذا يعني المغايرة ، وإن أريد أن الله تعالى كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه اسماً أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم ، فهذا هو الضلال ، فكلّ ما سوى الله تعالى مخلوق صار بعد أن لم يكن.

ـ أما القول بأن الربّ تعالى كان معطّلاً عن الفعل ثم فعل ، فالعقل والشرع ينقضه. فالله تعالى ذو العرش المجيد فعّال لما يريد ، يدلّ على أن الله يفعل بإرادته ومشيئته ، فذكر ذلك في معرض ذكر الثناء على نفسه ولا يجوز أن يكون في وقت ما دون الكمال ، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ . . ﴾ [النحل: ١٧] ، فإذا أراد شيئاً فعله فهو يفعل ما يريد فعله ، فإرادته متعلقة بفعله ، وإرادته المتعلقة بفعل العبد تعني أن العبد إن أراد شيئاً ولم يرد أن يعينه عليه ويجعله فاعلاً له لم يوجد الفعل.

ـ فإرادته تعالى وفعله متلازمان ، فما أراد فِعْله فَعَله ، وما فَعَله فقد أراده ، فهو فعّال لما يريد بخلاف المخلوقات ، فالمخلوق قد يريد ما لا يفعل (مثلاً قد يريد طلوع الشمس) ، وقد يفعل ما لا يريد (قد يأتيه ولد وهو لا يريد).

ـ إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال ، وأن كل فعل له إرادة محضة:

إن كل ما صحّ أن تتعلّق به إرادته جاز فعله ، فإذا أراد أن يأتي بالملائكة أو يأتي يوم القيامة لفصل القضاء ، وأن يُرِيَ عباده ذاته أو يخاطبهم أو أن يضحك إليهم لم يمنع عليه فعله ، فإن ذلك يتوقف على صحة وصدق المخبر ، فإذا أخبر رسوله الصادق عليه السلام وجب التصديق ، وكذلك إثبات ما يشاء ومحو ما يشاء.

فالله تعالى موصوف بالربوبية قبل أن يكون هناك مربوب ، وموصوف بأنه خالق قبل أن يكون هناك مخلوق ، ولفظ الربوبية يشمل (الملك ، والحفظ ، والتدبير ، والتربية التي تعني: تبليغ الشيء كماله بالتدريج).

والخلق يعني التقدير ، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] ، وهي إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل أن يخلق خلقه.

ويعلم ما يكون قبل أن يكون ، ويكتبه ويقدره ويذكره ويخبر به ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ..﴾ [الحج: ١ ـ ٢]، فيكون شيئاً في العلم والذكر والكتاب قبل أن يخرج ، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

ـ **وصف نفسه بأنه تعالى المثل الأعلى** ، وأنّ مثل السوء المتضمّن للعيوب والنقائص هو لأعدائه المشركين ، ويستحيل أن يشترك بالمثل الأعلى المطلق أكثر من واحد. والمثل الأعلى يتضمن: الصفة العليا ـ علم العالمين بها ـ ووجودها العالي والخبر عنها وذكرها.

ـ خلق الخلق أي (أوجد وأنشأ وأبدع) ، أو قدر بعلمه أي عالماً بها ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

* * *